مَجْمُوعُ الْخُطَبِ الْمِنْبَرِيَّةِ (٥)

الصبر على البلاء

تأليف فضيلة الشيخ
أبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان
حفظه الله تعالى

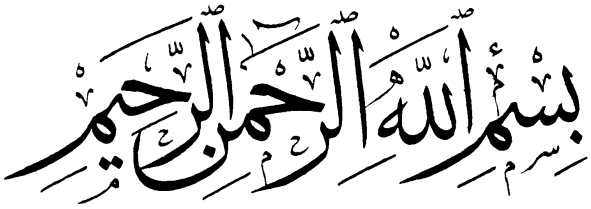
بسم الله الرحمن الرحيم

الْخُطْبَةُ الْأُولَى:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

حَقِيقَةُ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ

فَيَقُولُ اللهُ جَلَّوَعَلَا فِي كِتَابِهِ الْمَجِيدِ: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

أَيْنَ كَانَ ذَلِكَ؟ وَمَتَىٰ كَانَ؟

لَوْ كَانَ فِيهِ مِنْ قَلِيلِ خَيْرٍ أَوْ كَثِيرِهِ؛ لَبَيَّنَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ؛ وَلَكِنَّ الْقِصَّةَ وَرَدَتْ -هَكَذَا- مُبْهَمَةً مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ زَمَانٍ وَلَا مَكَانٍ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْهَا إِنَّمَا هُوَ اسْتِجْلَاءُ الْحِكْمَةِ الْبَاهِرَةِ فِي مَسْأَلَةِ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، وَرَدُّ ذَلِكَ جَمِيعِهِ إِلَىٰ قُدْرَةِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الْفَاعِلَةِ، وَإِرَادَةِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الْمُطْلَقَةِ، وَقَدَرِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ النَّافِذِ، وَمَشِيئَتِهِ الْمَحْتُومَةِ.

وَهَذَا اللَّفْظُ الَّذِي سِيقَتْ بِهِ الْآيَةُ الْمُكَرَّمَةُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ إِنَّمَا هِيَ فِي تَعْبِيرِهَا وَفِي دَلَالَتِهَا وَاضِحَةٌ كُلَّ الْوُضُوحِ.. بَارِزَةٌ كُلَّ الْبُرُوزِ فِي اسْتِجْلَاءِ تِلْكَ الْأُلُوفِ صُفُوفًا مِنْ بَعْدِ صُفُوفٍ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾.

أَمَّا عِلَّةُ الْخُرُوجِ؛ فَمَنْصُوصٌ عَلَيْهَا فِي قَوْلِ اللهِ جَلَّوَعَلَا: ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾؛ فَهَذِهِ الْأُلُوفُ.. لَا الْآلَافُ -وَهُوَ (أَيِ الأُلُوفُ) جَمْعُ كَثْرَةٍ، لَا جَمْعُ قِلَّةٍ- أُلُوفٌ مُؤَلَّفَةٌ، وَصُفُوفٌ مِنْ بَعْدِ صُفُوفٍ، كُلُّهُمْ خَرَجُوا يَتَلَفَّتُونَ فَزَعًا، وَيُسْرِعُونَ الْخُطَىٰ؛ كَأَنَّمَا يُلَاحِقُهُمْ مِنَ الْقَدَرِ مَا لَا يُرَدُّ، يُرِيدُونَ أَنْ يَهْرَبُوا مِنَ الْمَوْتِ، ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ﴾ جَلَّوَعَلَا وَأَخَذَهُمْ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ سَاحِقَةٍ مَاحِقَةٍ: ﴿مُوتُواْ﴾، فَمَاتُوا!!

لَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ فَزَعُهُمْ، وَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ إِسْرَاعُهُمْ، وَلَمْ يَنْفَعْهُمْ هَرَبُهُمْ مِنَ الْمَوْتِ؛ إِذْ إِنَّ قَدَرَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُفْلِتَ مِنْهُ، وَهَذِهِ قَبْضَةُ الْمَوْتِ قَدْ شُدِّدَتْ عَلَىٰ رِقَابِهِمْ، فَأَخَذَهُمُ اللهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ.

كَيْفَ مَاتُوا؟!!

لَمْ تُبَيِّنِ الْآيَةُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا بَيَّنَتْ أَنَّ هَذَا الْمَوْتَ قَدْ أَتَاهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾، إِمَّا خَوْفًا مِنْ بَلَاءٍ مَاحِقٍ، وَإِمَّا تَوَقُّعًا لِعَدُوٍّ سَاحِقٍ، وَإِمَّا لِغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُخَافُ أَوْ يُرْهَبُ، لَا يُهِمُّ، الْمُهِمُّ أَنَّهُمْ ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾، هَلْ بَعَثَهُمْ مِنَ الْمَوْتِ إِلَىٰ الْحَيَاةِ مِنْ بَعْدِ الْمَمَاتِ، أَمْ خَلَّفَ مِنْ أَعْقَابِهِمْ ذُرِّيَّةً لَا تَهْرَبُ مِنَ الْمَوْتِ كَمَا صَنَعُوا، وَإِنَّمَا تُوَاجِهُ الْمَوْتَ بِشَجَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ؟

أَيُّ ذَلِكَ كَانَ؛ فَالْآيَةُ لَمْ تَتَعَرَّضْ لِشَيْءٍ مِنْهُ، وَإِنَّمَا ظَاهِرُ النَّصِّ أَنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا أَحْيَاهُمْ هُمْ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَمَاتَهُمْ هُمْ.

يَقُولُ اللهُ جَلَّوَعَلَا: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾، وَاعْجَبْ مَا شِئْتَ مِنْ عَجَبٍ لِمَنَاهِجِ النَّاسِ فِي نَظْرَتِهِمْ إِلَىٰ الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ، وَمَنْهَجِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فِي تَقْرِيرِ ذَلِكَ!!

إِنَّ الْحَيَاةَ مِنْحَةٌ مِنَ اللهِ، وَهِبَةٌ يُعْطِيهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لِلْأَحْيَاءِ مَتَىٰ شَاءَ، وَيَسْتَرِدُّهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنَ الْأَحْيَاءِ وَقْتَمَا يَشَاءُ، وَفِي هِبَتِهِمْ وَاسْتِرْدَادِ الْهِبَةِ مِنْهُمْ.. فِي ذَلِكَ وَذَلِكَ فَضْلٌ مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَحِكْمَةٌ لَا يَعْلَمُهَا عَلَىٰ وَجْهِهَا إِلَّا الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ عَقَّبَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَىٰ خُرُوجِهِمْ مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فِي تَطَلُّبِهِمْ لِلْحَيَاةِ، وَفِي هُرُوبِهِمْ مِنَ الْمَوْتِ، ثُمَّ مَا أَتْبَعَ ذَلِكَ مِنَ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ.. أَتْبَعَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ذَلِكَ كُلَّهُ بِقَوْلِهِ جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾.

❀❀❀

قَضِيَّتَانِ مَحْسُومَتَانِ: الْأَجَلُ وَالرِّزْقُ

يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ رَهْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا رَآهُ أَوْ شَهِدَهُ؛ فَإِنَّهُ لَا يُبَاعِدُ مِنْ أَجَلٍ وَلَا يُقَرِّبُ مِنْ رِزْقٍ أَلَّا يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا رَآهُ أَوْ شَهِدَهُ**»(١).

النَّبِيُّ ﷺ يُبَيِّنُ أَنَّ الْأَمْرَيْنِ الَّذَيْنِ يَخْتَصِمُ بِسَبَبِهِمَا النَّاسُ فِي كُلِّ شَيْءٍ.. يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الْأَجَلَ وَالرِّزْقَ كُلٌّ ذَلِكَ مَسْطُورٌ عِنْدَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَزَلًا، لَا يُزَادُ فِيهِ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ، وَأَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ يَسُوقُ ذَلِكَ مَسَاقَهُ الَّذِيْ قَدَّرَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَزَلًا، لَا يُبَاعِدُ مِنْ أَجَلٍ وَلَا يُدَانِي وَلَا يُقَرِّبُ مِنْ رِزْقٍ أَنْ يَحْتَاطَ النَّاسُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَلَا أَنْ يَحْذَرُوا، وَلَا أَنْ يَخَافُوا مِنْهُ وَلَا أَنْ يَرْهَبُوا، وَلَكِنْ كُلُّ ذَلِكَ قَدَّرَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَالْخَلْقُ صَائِرُونَ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ الْأَمِينُ ﷺ: «**أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ رَهْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا رَآهُ أَوْ شَهِدَهُ؛ فَإِنَّهُ لَا يُبَاعِدُ مِنْ أَجَلٍ وَلَا يُقَرِّبُ مِنْ رِزْقٍ أَلَّا يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا رَآهُ أَوْ شَهِدَهُ**».

---

(١) أخرجه الترمذي: (٤/ ٤٨٣-٤٨٤، رقم ٢١٩١)، وابن ماجه: (٢/ ١٣٢٨، رقم ٤٠٠٧)، من حديث: أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
قال الترمذي: «حَدِيثٌ حَسَنٌ»، وكذا صحيح لغيره الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب»: (٣/ ٤٧، رقم ٢٧٥١).

كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّىٰ تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا، وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا؛ فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّ أَحَدَكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ يَطْلُبَهُ بِمَعْصِيَةٍ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ**»(١).

مَسْأَلَةُ الْأَجَلِ وَمَسْأَلَةُ الْمَوْتِ، وَمَسْأَلَةُ الرِّزْقِ وَمَسْأَلَةُ الطَّلَبِ؛ كُلُّ ذَلِكَ أَمْرٌ قَدْ قُدِّرَ أَزَلًا، وَالْمَرْءُ مَسُوقٌ إِلَيْهِ، كَمَا أَنَّهُ مَسُوقٌ إِلَىٰ حَتْفِهِ مَسُوقٌ إِلَىٰ رِزْقِهِ، وَكَمَا أَنَّ الرِّزْقَ يُسَاقُ إِلَيْهِ يَسْعَىٰ إِلَيْهِ أَجَلُهُ، وَلَا مَنْجَىٰ وَلَا مَهْرَبَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ!!

❀❀❀

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير»: (٨/ ١٩٤، رقم ٧٦٩٤)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء»: (١٠/ ٢٦)، من حديث: أَبِي أُمَامَةَ.
والحديث صححه بشواهده الألباني في تخريج «مشكلة الفقر»: (ص ١٩ - ٢٠، رقم ١٥)، وفي «صحيح الجامع»: (١/ ٤١٩ - ٤٢٠، رقم ٢٠٨٥)، وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه، مرفوعا، بنحوه

السَّرَائِرُ وَالْخَوَاتِيمُ عِلْمُهَا إِلَى اللهِ وَحْدَهُ

النَّبِيُّ ﷺ يُوَضِّحُ لَنَا أَمْرًا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَيْهَا الْمُسْلِمُ الْتِفَاتًا صَحِيحًا، يَذْكُرُ النَّبِيُّ ﷺ مُعَقِّبًا عَلَىٰ مَا وُصِفَ لَهُ مِنْ حَالِ رَجُلٍ كَانَ يَفْرِي فِي أَدِيمِ الْعَدُوِّ فَرْيًا، وَكَانَ يَحْمِلُ عَلَىٰ الْعَدُوِّ فَلَا يَكُونُ أَحَدٌ هُوَ أَقْرَبَ إِلَىٰ الْعَدُوِّ مِنْهُ، كَانَ مُجَاهِدًا بَاسِلًا فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ، إِذَا مَا سُمِعَتِ الْهَيْعَةُ: أَنْ يَا خَيْلَ اللهِ ارْكَبِي؛ كَانَ أَوَّلَ طَائِرٍ إِلَىٰ لِقَاءِ الْعَدُوِّ، يَقِفُ مَوْقِفَ الْمَوْتِ إِذَا مَا اتَّسَعَتِ الْحَدَقُ وَاحْمَرَّ الْبَأْسُ، وَإِذَا مَا ذُكِرَ ذَلِكَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَىٰ وَجْهِهِ قَالَ: «**هُوَ فِي النَّارِ**».

هَذَا الرَّجُلُ الْمَوْصُوفُ بِالْإِقْدَامِ وَالْبَسَالَةِ وَالشَّجَاعَةِ، وَالْقُرْبِ مِنَ الْعَدُوِّ عِنْدَ اللِّقَاءِ وَحَالَ الِالْتِحَامِ.. هُوَ فِي النَّارِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ الْمُخْتَارُ ﷺ، فَتَبِعَهُ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَعْلَمَ الْحِكْمَةَ مِنْ ذَلِكَ وَكَيْفَ هِيَ، فَلَمَّا كَانَتِ الْمَعْرَكَةُ؛ أُصِيبَ الرَّجُلُ بِجِرَاحَةٍ فِي رُكْبَتِهِ، فَجَزِعَ وَأَصَابَهُ الْهَلَعُ، وَالْجَزَعُ لَا يُبَاعِدُ مِنْ أَجَلٍ، وَلَا يُقَرِّبُ مِنْ رِزْقٍ، وَالْهَلَعُ لَا يُدَانِي مِنَ الْحَيَاةِ، وَلَا يُبَاعِدُ مِنَ الْمَوْتِ، فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجُبَنَاءِ.

النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ عَنْهُ: «**إِنَّهُ فِي النَّارِ!!**».

أَصَابَهُ الْجَزَعُ، وَأَحَاطَ بِهِ الْهَلَعُ، فَلَمَّا لَمْ يَحْتَمِلْ أَلَمَهُ، وَلَمْ يَحْتَمِلْهُ جَزَعُهُ؛ وَضَعَ ذُبَابَ سَيْفِهِ تَحْتَ ثَدْيِهِ، ثُمَّ اتَّكَأَ عَلَيْهِ، فَنَفَذَ إِلَىٰ ظَهْرِهِ فَمَاتَ!!

فَجَاءَ الرَّجُلُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ: «أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ» ﷺ(١).

هَذِهِ صُورَةٌ.. صُورَةٌ فِيهَا الْهَلَعُ مُجَسَّمًا، وَفِيهَا الْفَزَعُ بَادِيًا، وَفِيهَا الْهَلَعُ ظَاهِرًا، هَذِهِ صُورَةٌ فِيهَا مَا فِيهَا مِنْ وَطْأَةِ الْأَلَمِ الَّذِيْ لَا يُحْتَمَلُ فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ وَبَادِي الرَّأْيِ، فِيهَا مَا فِيهَا مِمَّا وَصَفَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِأَسْبَابِهِ وَمُقَدِّمَاتِهِ، ثُمَّ بِإِجْمَالِ نَتِيجَتِهِ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ: «**هُوَ فِي النَّارِ**» ﷺ.

❀❀❀

(١) أخرجه البخاري: (٦/ ٨٩-٩٠، رقم ٢٨٩٨)، ومسلم: (١/ ١٠٦، رقم ١١٢)، من حديث: سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ:
أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ الْتَقَىٰ هُوَ وَالْمُشْرِكُونَ، فَاقْتَتَلُوا، فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ عَسْكَرِهِ، وَمَالَ الْآخَرُونَ إِلَىٰ عَسْكَرِهِمْ، وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلٌ لَا يَدَعُ لَهُمْ شَاذَّةً إِلَّا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ، فَقَالُوا: مَا أَجْزَأَ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلَانٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا صَاحِبُهُ أَبَدًا، قَالَ: فَخَرَجَ مَعَهُ، كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ، وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ، قَالَ: فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالْأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَىٰ سَيْفِهِ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «**وَمَا ذَاكَ؟**» قَالَ: الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ آنِفًا: «**أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»، فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ، فَقُلْتُ: أَنَا لَكُمْ بِهِ، فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ حَتَّىٰ جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالْأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**».

نَمُوذَجٌ فَذٌّ فِي الصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلَاءِ

اجْعَلْ هَذِهِ الصُّورَةَ جَانِبًا، ثُمَّ انْظُرْ إِلَىٰ الْإِمَامِ الْعَلَمِ رَحِمَهُ اللَّهُ، انْظُرْ إِلَىٰ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِيْ كَانَ مِنْ سَادَاتِ التَّابِعِينَ، انْظُرْ إِلَيْهِ فِي سُمُوِّ صَبْرِهِ، وَفِي قُوَّةِ يَقِينِهِ وَاحْتِمَالِهِ.

انْظُرْ إِلَىٰ أَبِي قِلَابَةَ الْجَرْمِيِّ صَاحِبِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، هَذَا الرَّجُلُ الَّذِيْ يَحْكِي عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ كَمَا سَاقَ عَنْهُ الرِّوَايَةَ الْأَوْزَاعِيُّ، نَقَلَهَا بِإِسْنَادِهِ عَنْهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي «الثِّقَاتِ»[1] **فَقَالَ**: «خَرَجْتُ إِلَىٰ سَاحِلِ الْبَحْرِ مُرَابِطًا -وَكَانَ رِبَاطُنَا يَوْمَئِذٍ عَرِيشَ مِصْرَ-، قَالَ: فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَىٰ السَّاحِلِ؛ فَإِذَا أَنَا بِبَطِيحَةٍ، وَفِي الْبَطِيحَةِ خَيْمَةٌ فِيهَا رَجُلٌ قَدْ ذَهَبَتْ يَدَاهُ وَرِجْلَاهُ، وَثَقُلَ سَمْعُهُ وَذَهَبَ بَصَرُهُ، وَمَا لَهُ مِنْ جَارِحَةٍ تَنْفَعُهُ إِلَّا لِسَانُهُ، وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَحْمَدَكَ حَمْدًا أُكَافِئُ بِهِ شُكْرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ بِهَا عَلَيَّ، وَفَضَّلْتَنِي عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْتَ تَفْضِيلًا».

قَالَ الأَوْزَاعِيُّ: قَالَ عَبْدُ اللهِ: قُلْتُ: وَاللهِ! لَآتِيَنَّ هَذَا الرَّجُلَ، وَلَأَسْأَلَنَّهُ أَنَّىٰ لَهُ هَذَا الْكَلامُ؛ فَهْمٌ، أَمْ عِلْمٌ، أَمْ إِلْهَامٌ أُلْهِمَ؟!!

---

(١) أخرجه ابن حبان في «الثقات»: (٥/ ٢-٥)، من طريق: بَقِيَّةَ بْنِ الْوَلِيدِ، قَالَ: ثَنَا الأَوْزَاعِيُّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّدٍ..

فَأَتَيْتُ الرَّجُلَ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: «سَمِعْتُكَ وَأَنْتَ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَحْمَدَكَ حَمْدًا أُكَافِئُ بِهِ شُكْرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ بِهَا عَلَيَّ، وَفَضَّلْتَنِي عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْتَ تَفْضِيلًا؛ فَأَيُّ نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيْكَ تَحْمَدُهُ عَلَيْهَا؟!! وَأَيُّ فَضِيلَةٍ تَفَضَّلَ بِهَا عَلَيْكَ تَشْكُرُهُ عَلَيْهَا؟!!».

لَمَّا دَخَلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ عَلَىٰ أَبِي قِلَابَةَ الْجَرْمِيِّ خَيْمَتَهُ الَّتِي أُقِيمَتْ بِبَطِيحَةٍ بِعَرِيشِ مِصْرَ، وَسَأَلَهُ عَمَّا يَحْمَدُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ عَلَيْهِ وَيَشْكُرُهُ؛ **قَالَ أَبُو قِلَابَةَ**: «وَمَا تَرَىٰ مَا صَنَعَ رَبِّي! وَاللهِ لَوْ أَرْسَلَ السَّمَاءَ عَلَيَّ نَارًا فَأَحْرَقَتْنِي، وَأَمَرَ الْجِبَالَ فَدَمَّرَتْنِي، وَأَمَرَ الْبِحَارَ فَغَرَّقَتْنِي، وَأَمَرَ الْأَرْضَ فَبَلَعَتْنِي؛ مَا ازْدَدْتُ لِرَبِّي إِلا شُكْرًا؛ لِمَا أَنْعَمَ عَلَيَّ مِنْ لِسَانِي هَذَا؛ وَلَكِنْ يَا عَبْدَ اللهِ! إِذْ أَتَيْتَنِي؛ لِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ، قَدْ تَرَانِي عَلَىٰ أَيِّ حَالَةٍ أَنَا، أَنَا لَسْتُ أَقْدِرُ لِنَفْسِي علىٰ ضُرٍّ وَلَا نَفْعٍ، وَلَقَدْ كَانَ مَعِيَ بُنَيٌّ لِي يَتَعَاهَدُنِي فِي وَقْتِ صَلَاتِي فَيُوَضِّينِي، وَإِذَا جُعْتُ أَطْعَمَنِي، وَإِذَا عَطِشْتُ سَقَانِي، وَلَقَدْ فَقَدْتُهُ مُنْذُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ، فَتَحَسَّسْهُ لِي -رَحِمَكَ اللهُ-».

فَقُلْتُ: وَاللهِ! مَا مَشَىٰ خَلْقٌ فِي حَاجَةِ خَلْقٍ كَانَ أَعْظَمَ عِنْدَ اللهِ أَجْرًا مِمَّنْ يَمْشِي فِي حَاجَةِ مِثْلِكَ، فَمَضَيْتُ فِي طَلَبِ الْغُلامِ، فَمَا مَضَيْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ حَتَّىٰ صِرْتُ بَيْنَ كُثْبَانٍ مِنَ الرَّمْلِ، فَإِذَا أَنَا بِالْغُلامِ قَدِ افْتَرَسَهُ سَبُعٌ وَأَكَلَ لَحْمَهُ، فَاسْتَرْجَعْتُ، وَقُلْتُ: أَنَّىٰ لِي وَجْهٌ رَقِيقٌ آتِي بِهِ الرَّجُلَ!!

فَبَيْنَمَا أَنَا مُقْبِلٌ نَحْوَهُ؛ إِذْ خَطَرَ علىٰ قَلْبِي ذِكْرُ أَيُّوبَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلامَ، فَقَالَ: «أَلَسْتَ بِصَاحِبِي؟».

قُلْتُ: بَلَىٰ.

قَالَ: «مَا فَعَلْتَ فِي حَاجَتِي؟».

فَقُلْتُ: أَنْتَ أَكْرَمُ علىٰ اللهِ أَمْ أَيُّوبُ النَّبِيُّ؟

قَالَ: «بَلْ أَيُّوبُ النَّبِيُّ».

قُلْتُ: هَلْ عَلِمْتَ مَا صَنَعَ بِهِ رَبُّهُ؟ أَلَيْسَ قَدِ ابْتَلاهُ بِمَالِهِ، وَآلِهِ، وَوَلَدِهِ؟

قَالَ: «بَلَىٰ».

قُلْتُ: فَكَيْفَ وَجَدَهُ؟

قَالَ: «وَجَدَهُ صَابِرًا شَاكِرًا حَامِدًا».

قُلْتُ: لَمْ يَرْضَ مِنْهُ ذَلِكَ حَتَّىٰ أَوْحَشَ مِنْ أَقْرِبَائِهِ وَأَحِبَّائِهِ؟

قَالَ: «نَعَمْ».

قُلْتُ: فَكَيْفَ وَجَدَهُ رَبُّهُ؟

قَالَ: «وَجَدَهُ صَابِرًا شَاكِرًا حَامِدًا».

قُلْتُ: فَلَمْ يَرْضَ مِنْهُ بِذَلِكَ حَتَّىٰ صَيَّرَهُ عَرَضًا لِمَارِّ الطَّرِيقِ، هَلْ عَلِمْتَ؟

قَالَ: «نَعَمْ».

قُلْتُ: فَكَيْفَ وَجَدَهُ رَبُّهُ؟

قَالَ: «صَابِرًا شَاكِرًا حَامِدًا، أَوْجِزْ -رَحِمَكَ اللهُ-».

قُلْتُ لَهُ: إِنَّ الْغُلامَ الَّذِي أَرْسَلْتَنِي فِي طَلَبِهِ وَجَدْتُهُ بَيْنَ كُثْبَانِ الرَّمْلِ وَقَدِ افْتَرَسَهُ سَبُعٌ فَأَكَلَ لَحْمَهُ؛ فَأَعْظَمَ اللهُ لَكَ الأَجْرَ، وَأَلْهَمَكَ الصَّبْرَ!!

فَقَالَ الْمُبْتَلَىٰ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْلُقْ مِنْ ذُرِّيَّتِي خَلْقًا يَعْصِيهِ فَيُعَذِّبَهُ بِالنَّارِ»، ثُمَّ اسْتَرْجَعَ، وَشَهَقَ شَهْقَةً فَمَاتَ.

فَقُلْتُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، عَظُمَتْ مُصِيبَتِي!! رَجُلٌ مِثْلُ هَذَا إِنْ تَرَكْتُهُ أَكَلَتْهُ السِّبَاعُ، وَإِنْ قَعَدْتُ لَمْ أَقْدِرْ علىٰ ضُرٍّ وَلا نَفْعٍ، فَسَجَّيْتُهُ بِشَمْلَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ، وَقَعَدْتُ عِنْدَ رَأْسِهِ بَاكِيًا، فَبَيْنَمَا أَنَا قَاعِدٌ؛ إِذْ تَهَجَّمَ عَلَيَّ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ،

فَقَالُوا: «يَا عَبْدَ اللهِ! مَا حَالُكَ؟! وَمَا قِصَّتُكَ؟!».

فَقَصَصْتُ عَلَيْهِمْ قِصَّتِي وَقِصَّتَهُ.

فَقَالُوا لِي: «اكْشِفْ لَنَا عَنْ وَجْهِهِ فَعَسَىٰ أَنْ نَعْرِفَهُ».

فَكَشَفْتُ عَنْ وَجْهِهِ، فَانْكَبَّ الْقَوْمُ عَلَيْهِ يُقَبِّلُونَ عَيْنَيْهِ مَرَّةً وَيَدَيْهِ أُخْرَىٰ، وَيَقُولُونَ: «بِأَبِي! عَيْنٌ طَالَمَا غَضَّتْ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ، وَبِأَبِي! وَجِسْمُهُ طَالَمَا كُنْتَ سَاجِدًا وَالنَّاسُ نِيَامٌ».

فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَرْحَمُكُمُ اللهُ؟

فَقَالُوا: «هَذَا أَبُو قِلابَةَ الْجَرْمِيُّ صَاحِبُ ابْنِ عَبَّاسٍ، لَقَدْ كَانَ شَدِيدَ الْحُبِّ لِلَّهِ وَلِلنَّبِيِّ ﷺ».

فَغَسَّلْنَاهُ وَكَفَّنَّاهُ بِأَثْوَابٍ كَانَتْ مَعَنَا، وَصَلَّيْنَا عَلَيْهِ وَدَفَنَّاهُ، فَانْصَرَفَ الْقَوْمُ وَانْصَرَفْتُ إِلَىٰ رِبَاطِي، فَلَمَّا أَنْ جَنَّ عَلَيَّ اللَّيْلُ؛ وَضَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُهُ فِيمَا يَرَىٰ

النَّائِمُ فِي رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّتَانِ مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ وَهُوَ يَتْلُو الْوَحْيَ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]، فَقُلْتُ: أَلَسْتَ بِصَاحِبِي؟

قَالَ: «بَلَىٰ».

قُلْتُ: أَنَّىٰ لَكَ هَذَا؟

قَالَ: «إِنَّ للهِ دَرَجَاتٍ لَا تُنَالُ إِلا بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلاءِ، وَالشُّكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ مَعَ خَشْيَةِ اللهِ ﷻ فِي السِّرِّ وَالْعَلانِيَةِ».

انْظُرْ إِلَىٰ هَذِهِ الصُّورَةِ الْوَضِيئَةِ فِي مُقَابِلِ الصُّورَةِ الَّتِي مَضَتْ؛ لَمَّا لَمْ يَحْتَمِلِ الرَّجُلُ جُرْحَهُ، وَلَمَّا لَمْ يَحْتَمِلِ الْجَرِيحُ أَلَمَهُ، وَلَمَّا لَمْ يَحْتَمِلِ النَّازِفُ نَزْفَهُ، فَتَعَجَّلَ حَيَاتَهُ، فَوَضَعَ سَيْفَهُ تَحْتَ ثُنْدُوَتِهِ -وَهُوَ مَوْضِعُ الثَّدْيِ مِنَ الرَّجُلِ فِي مُقَابِلِ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ-، فَوَضَعَ ذُبَابَ سَيْفِهِ تَحْتَ حَبَّةِ قَلْبِهِ، فَاتَّكَأَ عَلَيْهِ، فَنَفَذَ مِنْ ظَهْرِهِ فَمَاتَ، فَدَخَلَ النَّارَ كَمَا أَخْبَرَ الْمُخْتَارُ ﷺ، وَأَمَّا النَّبِيُّ ﷺ؛ فَيُخْبِرُ بِالْوَحْيِ مِنْ عِنْدِ اللهِ جَلَّوَعَلَا.

فَهَذَا مَعَ ظَاهِرِ عَمَلِهِ وَظَاهِرِ جِهَادِهِ هُوَ فِي النَّارِ، وَأَمَّا الَّذِي ذَهَبَتْ يَدَاهُ، وَذَهَبَتْ رِجْلَاهُ، وَذَهَبَ بَصَرُهُ، وَثَقُلَ سَمْعُهُ، وَلَمْ تَبْقَ مِنْهُ جَارِحَةٌ يُنْتَفَعُ بِهَا إِلَّا لِسَانُهُ، لِسَانٌ ذَاكِرٌ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.. يَذْكُرُ اللهَ جَلَّوَعَلَا آنَاءَ النَّهَارِ وَأَطْرَافَ اللَّيْلِ، لِسَانٌ ذَاكِرٌ للهِ جَلَّوَعَلَا يَقُومُ عَلَىٰ أَسَاسٍ مَتِينٍ مِنْ قَلْبٍ صَابِرٍ عَلَىٰ بَلَاءِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، يَلْحَظُ مَا عِنْدَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مِنَ الْعَطِيَّةِ، وَتَتَحَوَّلُ فِي حَقِّهِ الْمِحْنَةُ إِلَىٰ مِنْحَةٍ، وَالنِّقْمَةُ إِلَىٰ نِعْمَةٍ بِقَدَرِ اللهِ جَلَّوَعَلَا.

يَصْبِرُ صَبْرَ الْكِرَامِ، لَا صَبْرَ اللِّئَامِ[١]؛ لِأَنَّهُ مَنْ لَمْ يَصْبِرْ صَبْرَ الْكِرَامِ سَلَا سُلُوَّ الْبَهَائِمِ؛ لِأَنَّ الْجَازِعَ الَّذِي يَعْتَرِضُ عَلَىٰ قَضَاءِ اللهِ جَلَّوَعَلَا فِيهِ، وَالَّذِي يَرُدُّ عَلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَا قَدَّرَهُ عَلَيْهِ وَهُوَ لَا يُرَدُّ، الْجَازِعُ الَّذِي يَجْزِعُ، وَالْهَالِعُ الَّذِي يَهْلَعُ، وَالرَّادُّ عَلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قَضَاءَهُ بِالتَّسَخُّطِ وَالشَّكْوَىٰ، مَنْ يَشْكُو اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِلَىٰ خَلْقِهِ.

وَلَـئِنْ شَـكَوْتَ إِلَـىٰ ابْـنِ آدَمَ إِنَّمَـا تَشْـكُو الـرَّحِيمَ إِلَـىٰ الَّـذِي لَا يَـرْحَمُ

الَّذِي يَصْنَعُ ذَلِكَ لَا يُقَدِّمُ وَلَا يُؤَخِّرُ، ثُمَّ هُوَ بَعْدُ تَحْتَ مَظَلَّةِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَسْلُوَ يَوْمًا كَالْمُوثَقِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا يَكُفُّ بِهِ لَذْعَ السِّيَاطِ عَلَىٰ بَدَنِهِ وَظَهْرِهِ، فَهُوَ يَحْتَمِلُ ذَلِكَ جَازِعًا وَهَالِعًا؛ لِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ لِذَلِكَ رَدًّا؛ جَزِعَ أَمْ صَبَرَ، وَلَكِنْ هَذَا سُلُوُّ الْبَهَائِمِ، كَمَا قَالَ عُلَمَاؤُنَا -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ-: «إِنْ لَمْ تَصْبِرْ صَبْرَ الْكِرَامِ؛ سَلَا الْأَبْعَدُ سُلُوَّ الْبَهَائِمِ!!».

وَالرَّجُلُ يَلْحَظُ عِنْدَ اللهِ جَلَّوَعَلَا مَعْنًىٰ لَطِيفًا؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ كَأَنَّمَا يُنَاجِي رَبَّهُ وَمَوْلَاهُ: لِأَنَّ هَذَا الَّذِي نَزَلَ بِي مِمَّا يَسُوءُنِي إِنْ كَانَ قَدْ سَاءَنِي فِي نَفْسِي حَقًّا؛ فَقَدْ سَرَّنِي فِي قَلْبِي صِدْقًا؛ لِأَنَّهُ قَدْ سَرَّنِي أَنِّي خَطَرْتُ بِبَالِكَ!!

---

(١) انظر: «عدة الصابرين»: الباب الحادي عشر: في الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام، (ص ٥٢ - ٥٣).

وَالرَّسُولُ ﷺ يُبَيِّنُ أَنَّهُ «**مَا أُوتِي أَحَدٌ عَطَاءً هُوَ أَوْسَعُ بَعْدَ الْإِيمَانِ مِنَ الصَّبْرِ**»(١).

وَهَذِهِ امْرَأَةٌ مِنَ الصَّالِحَاتِ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهَا-، هَذِهِ الْمَرْأَةُ زَوْجُ فَتْحٍ الْمَوْصِلِيِّ رَحِمَهُ اللهُ، لَمَّا أُصِيبَتْ فِي أُصْبُعِهَا، فُدُمِيَتْ وَكَادَتْ تُقْطَعُ، وَنَزَفَتْ دَمًا عَبِيطًا(٢)، هَذِهِ الْمَرْأَةُ ضَحِكَتْ مُتَبَسِّمَةً، فَقِيلَ لَهَا: «أَتَضْحَكِينَ مَعَ هَذَا الْجُرْحِ الْبَلِيغِ؟!!».

فَقَالَتْ: «حَلَاوَةُ أَجْرِهَا أَنْسَتْنِي مَرَارَةَ صَبْرِهَا!!»(٣).

حَلَاوَةُ أَجْرِهَا أَنْسَتْنِي مَرَارَةَ أَلَمِهَا.

فَهَذِهِ تَنْظُرُ أَبْعَدَ مِنْ مَوَاطِئِ قَدَمَيْهَا.

---

(١) أخرجه البخاري: (٣/ ٣٣٥، رقم ١٤٦٩) و(١١/ ٣٠٣، رقم ٦٤٧٠)، ومسلم: (٢/ ٧٢٩، رقم ١٠٥٣)، من حديث: أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ:
أَنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّىٰ إِذَا نَفِدَ مَا عِنْدَهُ قَالَ: «**مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ**».

(٢) ذكره ابن القيم في «مدارج السالكين»: (٢/ ١٦٧).

(٣) نَزَفَتْ دَمًا عَبِيطًا؛ يَعْنِي: نَزَفَتْ دَمًا طَرِيًّا خَالِصًا.

الْمَوْتُ سَيْفٌ مُعَلَّقٌ عَلَى رُؤُوسِ الْأَحْيَاءِ

النَّبِيُّ ﷺ هُوَ نَبِيُّ الْأُمَّةِ الْوَسَطِ، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ الْوَسَطُ تَسِيرُ عَلَىٰ الْجَادَّةِ مَا بَيْنَ الْغُلُوِّ وَبَيْنَ التَّقْصِيرِ؛ لِذَلِكَ يَجْعَلُنَا النَّبِيُّ ﷺ مَا بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، مَا بَيْنَ تَوَقُّعِ رَحْمَةِ اللهِ جَلَّوَعَلَا وَمَا بَيْنَ الْخَوْفِ مِنْ عَذَابِ اللهِ جَلَّوَعَلَا.

وَهَذَا نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ يَدْخُلُ عَلَىٰ شَابٍّ وَهُوَ بِسِيَاقَةِ الْمَوْتِ، فَيَقُولُ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**كَيْفَ تَجِدُكَ؟**».

فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ! أَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّي، وَأَخَافُ ذُنُوبِي».

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا اجْتَمَعَا عَلَىٰ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا آتَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو، وَأَمَّنَهُ اللهُ مِمَّا يَخَافُ**»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي: (٣/ ٣٠٢، رقم ٩٨٣)، وابن ماجه: (٢/ ١٤٢٣، رقم ٤٢٦١)، من حديث: أَنَسٍ:

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَىٰ شَابٍّ وَهُوَ فِي المَوْتِ، فَقَالَ: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟»، قَالَ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَرْجُو اللهَ، وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا المَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ**».

قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ»، وحسن إسناده وصحح متنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب»: (٣/ ٣٢٢، رقم ٣٣٨٣).

قَالَ: «أَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّي، وَأَخَافُ ذُنُوبِي».. أَمَا إِنِّي لَقَادِمٌ عَلَىٰ كَرِيمٍ، حَقًّا إِذَا مَا كَانَ الْمَرْءُ فِي سِيَاقَةِ الْمَوْتِ، وَلَا دَافِعَ لِلْمَوْتِ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [يونس: ٤٩]، لَا يَتَقَدَّمُ عَنْهُ وَلَا يَتَأَخَّرُ، الْحَيَاةُ مَحْدُودَةٌ بَدْءًا وَمُنْتَهًىٰ، وَالْقَضِيَّةُ مَحْسُومَةٌ سَلَفًا، فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجُبَنَاءِ!!

يَقُولُ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا **فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ**: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ [البقرة: ٢٤٣].. وَهَكَذَا أَتَتْهُمْ ضَرْبَةُ الْمَوْتِ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، لَمْ يَنْفَعْهُمْ حَذَرٌ، وَلَمْ يَنْفَعْهُمْ تَلَبُّثٌ مِنْ حَيْثُ مَا خَرَجُوا إِلَىٰ حَيْثُ مَا أَرَادُوا، وَإِنَّمَا أَتَاهُمْ أَمْرُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ.

الْمَوْتُ سَيْفٌ مُعَلَّقٌ عَلَىٰ رُؤُوسِ الْأَحْيَاءِ.

الْمَوْتُ آتٍ لَا مَحَالَةَ.

الْحَيَاةُ مَعْلُومَةٌ بَدْءًا وَمُنْتَهًىٰ، لَا تَزِيدُ لَحْظَةً وَلَا تَنْقُصُ بُرْهَةً، وَلَا يَدْفَعُهَا جُبْنٌ وَلَا حَذَرٌ، وَلَا يَرُدُّهَا هَلَعٌ وَلَا جَزَعٌ وَلَا فَزَعٌ!!

الْمَوْتُ آتٍ لَا مَحَالَةَ فِي وَقْتِهِ؛ فَفِيمَ الْعَنَاءُ إِذَنْ؟!! وَفِيمَ الرَّهْبَةُ مِنْهُ إِذَنْ؟!!

أَلَا إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَيَّنَ أَنَّ قَضِيَّةَ الرِّزْقِ وَقَضِيَّةَ الْعُمُرِ قَدْ حُسِمَتَا سَلَفًا فِي الْأَزَلِ، «**فَلَا يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَىٰ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ** ﷻ؛ **فَإِنَّ مَا عِنْدَ اللهِ لَا يُنَالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ**»(١).

---

(١) تقدم تخريجه من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

أَلَيْسَتَا -أَيْ: هَاتَانِ الْقَضِيَّتَانِ- أَلَيْسَتَا هُمَا اللَّتَيْنِ يُعَانِي مِنْهُمَا النَّاسُ مُنْذُ كَانَ آدَمُ إِلَىٰ أَنْ يَرِثَ اللهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا؟!!

أَلَيْسَ بِسَبَبِهِمَا تُرَاقُ الدِّمَاءُ، وَتُنْتَهَكُ الْأَعْرَاضُ، وَتُسْلَبُ الْأَمْوَالُ؟!!

أَلَيْسَ بِسَبَبِهِمَا تَقُومُ قِيَامَةُ الْخَلْقِ فِي حَالِ الْحَيَاةِ فِي تِلْكَ الْمَعَارِكِ الطَّاحِنَاتِ؟!!

كُلُّ ذَلِكَ بِسَبَبِ الْأَجَلِ وَبِسَبَبِ الرِّزْقِ، مَعَ أَنَّهُمَا قَدْ حُسِمَتَا سَلَفًا؛ فَعَلَىٰ الْمَرْءِ إِذَا مَا أَتَاهُ مَا يَكْرَهُ أَنْ يُوَاجِهَ ذَلِكَ بِقَلْبٍ عَامِرٍ بِتَقْوَىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اخْتِيَارَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَهُ هُوَ خَيْرٌ مِنَ اخْتِيَارِهِ لِنَفْسِهِ لَوْ كَانَ مُخْتَارًا.

تَقُولُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ تَمَلَّتْ فِي صَفْحَةِ وَجْهِهِ يَوْمًا ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ! لَأَنْتَ أَحَقُّ مِنَ الْمَمْدُوحِ بِقَوْلِ الْمَادِحِ فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنٌ ... وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءُ

خُلِقْتَ مُبَرَّءًا مِنْ كُلِّ عَيْبٍ ... كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ[1]

صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَالْحَقُّ أَنَّ الشَّاعِرَ لَوْ قَالَ ذَلِكَ فِي حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ لَكَانَ مُسِيئًا لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَفِي ثُبُوتِ ذَلِكَ عَنْ عَائِشَةَ نَظَرٌ، فَهِيَ أَدَقُّ فِي النَّقْدِ حِسًّا، وَأَعْلَىٰ فِي الْبَلَاغَةِ

(١) البيتان من البحر الوافر، نسبهما صاحب «المستطرف»: (ص ٢٣٦) إلىٰ حسان بن ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهو في الزيادات علىٰ «ديوانه»: (ص ٤٤١، رقم القصيدة ٢٦٥).

كَعْبًا مِنْ أَنْ تَتَوَرَّطَ فِي مِثْلِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ اخْتِيَارَ اللهِ جَلَّوَعَلَا لِمُحَمَّدٍ فِي أَمْرِ خِلْقَتِهِ وَخُلُقِهِ هُوَ أَعْلَىٰ مِنَ اخْتِيَارِ مُحَمَّدٍ لِنَفْسِهِ لَوْ كَانَ مُخْتَارًا ﷺ.

فَاخْتِيَارُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَكَ خَيْرٌ مِنَ اخْتِيَارِكَ لِنَفْسِكَ لَوْ كُنْتَ مُخْتَارًا، فَسَلِّمْ تَسْلَمْ؛ فَإِنَّ السَّلَامَةَ فِي التَّسْلِيمِ للهِ جَلَّوَعَلَا، وَإِنَّمَا يَتَعَثَّرُ مَنْ لَمْ يُخْلِصْ، وَالسَّلَامَةُ كُلُّ السَّلَامَةِ فِي التَّسْلِيمِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

اللَّهُمَّ رَضِّنَا بِقَضَائِكَ وَقَدَرِكَ، وَأَوْزِعْنَا شُكْرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ وَالِدِينَا، وَأَوْزِعْنَا أَنْ نَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ، إِنَّا تُبْنَا إِلَيْكَ وَإِنَّا مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

أَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ الْعَظِيمَ لِي وَلَكُمْ.

الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ صَلَاةً وَسَلَامًا دَائِمَيْنِ مُتَلَازِمَيْنِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَيَقُولُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي كِتَابِهِ الْمَجِيدِ: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦].

اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَضَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ أَنَّ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ صَالِحًا حَبِيبًا إِلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مُقَرَّبًا؛ فَهَذَا يَحْمِلُ مِنَ الْبَلَاءِ وَيَقَعُ عَلَيْهِ مِنَ الِابْتِلَاءِ مَا لَا يَقَعُ عَلَىٰ غَيْرِهِ، «**أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَىٰ الرَّجُلُ عَلَىٰ قَدْرِ دِينِهِ، فَإِذَا كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ فِي ابْتِلَائِهِ، وَمَا يَزَالُ الِابْتِلَاءُ**

بِالْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ فِي مَالِهِ وَنَفْسِهِ وَأَهْلِهِ حَتَّىٰ يَلْقَىٰ اللهَ جَلَّوَعَلَا وَلَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»(١).

اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ يَبْتَلِيهِ بِالْمَصَائِبِ؛ لِيُطَهِّرَهُ مِنَ الْمَعَائِبِ، وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لِأَنَّهُ يُحِبُّهُ يَبْتَلِيهِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَلْقَىٰ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ بِصَحِيفَةٍ وَلَا سَيِّئَةَ فِيهَا.

وَالنَّبِيُّ ﷺ جَعَلَهُ اللهُ جَلَّوَعَلَا مَثَلًا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأُسْوَةً وَقُدْوَةً مُبَارَكَةً مَحْمُودَةً فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ حَتَّىٰ إِنَّهُ ﷺ مَا مِنَ ابْتِلَاءٍ يُمْكِنُ أَنْ يَنْزِلَ بِمُؤْمِنٍ إِلَّا وَقَدْ حَمَلَ مِنْهُ الْقِسْطَ الْأَوْفَىٰ وَالْقِدْحَ الْمُعَلَّىٰ؛ حَتَّىٰ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالرَّمْيِ فِي الْعِرْضِ!! أُصِيبَ النَّبِيُّ ﷺ بِمِثْلِ ذَلِكَ؛ لِكَيْ يَكُونَ فِي هَذِهِ الْإِصَابَةِ مَسْلَاةً عَمَّا يُمْكِنُ أَنْ يُحِسَّ بِهِ الْمُؤْمِنُ إِذَا مَا وَقَعَ عَلَيْهِ شَبِيهٌ مِمَّا وَقَعَ عَلَىٰ خَلِيلِهِ وَنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

❀❀❀

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ: (٤/ ٦٠١ - ٦٠٢، رقم ٢٣٩٨)، وَابْنُ مَاجَهْ: (٢/ ١٣٣٤، رقم ٤٠٢٣)، مِنْ حَدِيثِ: سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه.
قَالَ التِّرْمِذِيُّ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، وَكَذَا صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «**الصَّحِيحَةِ**»: (١/ ٢٧٣، رقم ١٤٣).

حَالُ الْمُسْلِمِ الصَّحِيحُ مَعَ الْمَرَضِ

الرَّسُولُ ﷺ يُدْرِكُهُ الْمَرَضُ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يُعَلِّمُنَا مَا يَنْبَغِي عَلَيْنَا إِذَا مَا نَزَلَ بِنَا مِنْ هَذَا الْأَمْرِ شَيْءٌ، وَأَلَمَّ بِنَا مِنْهُ طَرَفٌ، عَلَّمَنَا نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ: أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا مَا نَزَلَ بِهِ بَلَاءٌ، أَوْ حَطَّ عَلَىٰ سَاحَتِهِ مَرَضٌ؛ فَعَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَىٰ مَا آتَاهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنْ ذَلِكَ، وَعَلَيْهِ أَلَّا يَجْزَعَ بِسَبَبِ ذَلِكَ وَلَا يَسْخَطَ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ، وَعَلَيْهِ أَلَّا يَتَمَنَّىٰ الْمَوْتَ بِحَالٍ أَبَدًا مَهْمَا اشْتَدَّ بِهِ الضُّرُّ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَرُدَّ الْمَظَالِمَ إِلَىٰ أَرْبَابِهَا؛ خَاصَّةً إِذَا مَا كَانَ مُتَوَقِّعًا لِدُنُوِّهِ مِنَ الْغَايَةِ، وَقُرْبِهِ مِنَ النِّهَايَةِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟**».

قَالُوا: «الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ».

فَقَالَ: «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَىٰ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ مَا عَلَيْهِ؛ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**»[1].

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: (٤/ ١٩٩٧، رقم ٢٥٨١)، مِنْ حَدِيثِ: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَىٰ عَبْدِكَ وَخَلِيلِكَ وَصَفِيِّكَ وَنَجِيِّكَ وَكَلِيمِكَ مُحَمَّدٍ ﷺ.

الْمُفْلِسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ هُوَ الْمُفْلِسَ فِي الدُّنْيَا، الْمُفْلِسُ فِي الدُّنْيَا يَعُدُّهُ النَّاسُ مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا دِينَارَ، وَأَمَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَهُوَ مَنْ تُؤْخَذُ حَسَنَاتُهُ، حَتَّىٰ إِذَا مَا فَنِيَتْ؛ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَصْحَابِ الْحُقُوقِ عَلَيْهِ، فَطُرِحَ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ، فَلَا حَسَنَةَ هُنَاكَ وَلَا عَمَلَ صَالِحَ -وَلَا عَمِلَ صَالِحًا- يُمْكِنُ أَنْ يَرْجُوَ ثَوَابَهُ، وَلَا أَنْ يَتَحَقَّقَ لَهُ خَيْرُهُ، وَإِنَّمَا هُوَ قَدْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ، فَأُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ، فَطُرِحَ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ.

فَعَلَىٰ الْمَرْءِ إِذَا مَا نَزَلَ بِهِ الْمَرَضُ أَنْ يَرُدَّ الْحُقُوقَ إِلَىٰ أَرْبَابِهَا، وَأَلَّا يَجْعَلَ نَفْسَهُ عُرْضَةً لِلْقِصَاصِ مِنْهُ مِنْ أَصْحَابِ الْحُقُوقِ عَلَيْهِ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَسْمِحَ أُولَئِكَ -أَيْ: أَصْحَابَ الْحُقُوقِ- فِي حُقُوقِهِمْ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَدَاءَهَا، وَعَلَيْهِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي قَضَاءِ الدُّيُونِ؛ فَإِنَّهُ «**إِلَّا الدَّيْنَ، إِلَّا الدَّيْنَ، إِلَّا الدَّيْنَ**»(١).

اللَّهُمَّ اقْضِ عَنَّا دُيُونَنَا وَعَنِ الْمَدِينِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَيَّنَ أَنَّ الْمَرْءَ مَحْبُوسٌ عَنِ الْجَنَّةِ بِالدَّيْنِ حَتَّىٰ يُقْضَىٰ عَنْهُ.

---

(١) كَمَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: (٣/ ١٥٠٢، رقم ١٨٨٦)، مِنْ حَدِيثِ: عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ «**يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنَ**».

وَهَذَا رَجُلٌ صَالِحٌ رُئِيَ فِي الْمَنَامِ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَقِيلَ لَهُ: «مَا صَنَعَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِكَ؟

فَقَالَ: خَيْرًا؛ إِلَّا أَنِّي مَحْبُوسٌ عَنِ الْجَنَّةِ لِإِبْرَةٍ قَدِ اسْتَعَرْتُهَا فَلَمْ أَرُدَّهَا!!»(١).

وَلَا تَسْتَغْرِبْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْحَقُّ، وَلِأَنَّ فِعْلَ رَبِّنَا جَلَّوَعَلَا هُوَ الْعَدْلُ، وَلِأَنَّ قَوْلَ رَبِّكَ جَلَّوَعَلَا هُوَ الْحَقُّ؛ فَعَلَيْكَ أَنْ تَرُدَّ الْمَظَالِمَ إِلَىٰ أَرْبَابِهَا، وَإِذَا كَانَ عِنْدَكَ شَيْءٌ يُوصَىٰ فِيهِ؛ فَأَوْصِ فِيهِ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ، يَقُولُ النَّبِيَّ ﷺ: «**مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ وَعِنْدَهُ شَيْءٌ يُوصَىٰ فِيهِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ تَحْتَ رَأْسِهِ**». أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ(٢).

يَقُولُ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «**فَمَا بِتُّ لَيْلَةً مُنْذُ سَمِعْتُ ذَلِكَ الْحَدِيثَ إِلَّا وَوَصِيَّتِي مَكْتُوبَةٌ تَحْتَ رَأْسِي**».

---

(١) وَدَلِيلُ ذَلِكَ مَا أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: (٣/ ٢٤٦، رقم ٣٣٤١)، وَالنَّسَائِيُّ: (٧/ ٣١٥، رقم ٤٦٨٥)، مِنْ حَدِيثِ: سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**هَاهُنَا أَحَدٌ، مِنْ بَنِي فُلَانٍ؟**» فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «**هَاهُنَا أَحَدٌ مِنْ بَنِي فُلَانٍ؟**» فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «**هَاهُنَا أَحَدٌ مِنْ بَنِي فُلَانٍ؟**» فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ ﷺ: «**مَا مَنَعَكَ أَنْ تُجِيبَنِي فِي الْمَرَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ؟ أَمَا إِنِّي لَمْ أُنَوِّهْ بِكُمْ إِلَّا خَيْرًا، إِنَّ صَاحِبَكُمْ مَأْسُورٌ بِدَيْنِهِ**».

وَالْحَدِيث صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «**صَحِيحِ التَّرْغِيبِ والتَّرْهِيبِ**»: (٢/ ٣٥٣، رقم ١٨١٠).

(٢)أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: (٥/ ٣٥٥، رقم ٢٧٣٨)، وَمُسْلِمٌ: (٣/ ١٢٤٩، رقم ١٦٢٧).

يُشْهِدُ عَلَىٰ وَصِيَّتِهِ، وَلَا يُضَارُّ بِسَبَبِ وَصِيَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَا يُوصِي لِأَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِ الْفُرُوضِ الَّذِينَ يَرِثُونَ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ لَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ، وَيُوصِي إِلَىٰ حُدُودِ الثُّلُثِ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ، وَيُشْهِدُ عَلَىٰ ذَلِكَ شَهِيدَيْنِ عَدْلَيْنِ كَمَا أَمَرَ اللهُ جَلَّوَعَلَا فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ.

ثُمَّ إِنَّهُ إِذَا كَانَ يَعْلَمُ مِنْ عُرْفِ الْبِيئَةِ الَّتِي يَحْيَا فِيهَا، وَمِنْ عُرْفِ النَّاسِ الَّذِينَ يُخَالِطُونَهُ أَنَّهُ إِذَا مَا مَاتَ؛ حَمَلُوا عَلَيْهِ بِالْبِدَعِ مَيِّتًا كَمَا حَمَلُوا عَلَيْهِ بِالْبِدَعِ حَيًّا؛ فَعَلَيْهِ بِأَنْ يُوصِيَ إِذَا مَا مَاتَ أَلَّا يُفْعَلَ بِهِ إِلَّا مَا وَافَقَ كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ ﷺ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ فِي حَالِ الْمَرَضِ كَثِيرَ الذِّكْرِ للهِ جَلَّوَعَلَا، لَا يَفْتُرُ عَنْ ذِكْرِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي حَالٍ أَبَدًا.

وَإِنَّ بَعْضَ أَهْلِ الصَّلَاحِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أُلْهِمَ الذِّكْرَ فِي الْمَنَامِ مَعَ النَّفَسِ، كَأَنَّمَا يُعَجِّلُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَهُ حَالًا مِنْ حَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ وَالتَّكْبِيرَ فِي الْجَنَّةِ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ(١)، فَيَخْرُجُ التَّسْبِيحُ وَالتَّحْمِيدُ وَالذِّكْرُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ كَمَا يَخْرُجُ النَّفَسُ بِغَيْرِ كَلَفَةٍ وَلَا مَؤُونَةٍ.

فَعَلَىٰ الْمَرْءِ أَنْ يَكُونَ ذَاكِرًا للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ لِأَنَّ اللَّحْظَةَ الَّتِي تَمُرُّ لَنْ تَعُودَ أَبَدًا، وَقَدْ آنَ أَوَانُ الْقُدُومِ عَلَىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وَإِنَّ الْمَرْءَ إِذَا مَا مَاتَ عَلَىٰ الْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ فَهُوَ مِنْ حُسْنِ الْخَاتِمَةِ، كَمَا قَالَ نَبِيُّنَا ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ**».

---

(١) كَمَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: (٤/ ٢١٨٠ - ٢١٨١، رقم ٢٨٣٥)،

فَقِيلَ: «كَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ يَا رَسُولَ اللهِ؟».

قَالَ: «**يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ المَوْتِ**»(١)، كَأَنْ يَأْمُرَ بِمَعْرُوفٍ ثُمَّ يَمُوتُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، كَأَنْ يَنْهَىٰ عَنْ مُنْكَرٍ ثُمَّ يَمُوتُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، كَأَنْ يَدْعُوَ إِلَىٰ خَيْرٍ ثُمَّ يَقْبِضُهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِلَيْهِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، كَأَنْ يَكُونَ ذَاكِرًا للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَيَمُوتَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ذَاكِرًا شَاكِرًا حَامِدًا، عَلَىٰ النَّبِيِّ مُصَلِّيًا.

عِبَادَ اللهِ! أَلَا إِنَّ الْمَوْتَ آتٍ لَا مَحَالَةَ، وَإِنَّ الْأَجَلَ مَحْدُودٌ، لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ؛ فَلَا يُصِيبَنَّ أَحَدَكُمُ الْهَلَعُ وَالْجَزَعُ وَالْفَزَعُ، وَرَدُّ الْقَضَاءِ عَلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِذَا مَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِ الْمَرَضُ، وَلْيَعْلَمِ الْعَبْدُ الَّذِي يَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَنَّهُ إِذَا مَا شُدِّدَ عَلَيْهِ فِي الْمَرَضِ، وَإِذَا مَا شُدِّدَ عَلَيْهِ فِي النَّزْعِ؛ فَهَذَا حَالٌ شَرِيفٌ، حَالٌ لَهُ مَقَامٌ كَرِيمٌ عِنْدَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

تَقُولُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.. وَقَدْ مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ، وَإِنَّ رَأْسَهُ لَبَيْنَ سَحْرِهَا وَنَحْرِهَا، وَقَدْ أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَىٰ صَدْرِهَا، وَهِيَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تَسْنُدُ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ وَهُوَ يُعَانِي مِنَ النَّزْعِ، يَرْفَعُ سَبَّابَتَهُ -لَا بَلْ سَبَّاحَتَهُ- ﷺ إِلَىٰ أَعْلَىٰ.. إِلَى السَّمَاءِ، يَقُولُ: «**بَلِ الرَّفِيقَ الْأَعْلَىٰ مِنَ الْجَنَّةِ، بَلِ الرَّفِيقَ الْأَعْلَىٰ مِنَ الْجَنَّةِ**»؛ لِأَنَّهُ مَا مِنْ عَبْدٍ يَمُوتُ

---

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ: (٤/ ٤٥٠، رقم ٢١٤٢)، وَاللَّفْظُ لَهُ، أَحْمَدُ: (٣/ ١٢٠، رقم ١٢٢١٤)، مِنْ حَدِيثِ: أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
قَالَ التِّرْمِذِيُّ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، وَصَحَّحَ إِسْنَادَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «**الصَّحِيحَةِ**»: (٣/ ٣٢٣، رقم ١٣٣٤).

إِلَّا وَلَهُ رَفِيقٌ مِنَ الْأَرْوَاحِ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ يَكُونُ رَفِيقًا لَهُ، وَالنَّبِيُّ ﷺ لَهُ الرَّفِيقُ الْأَعْلَىٰ، لِلنَّبِيِّ ﷺ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ، لِلنَّبِيِّ ﷺ الْمَقَامُ الْمَشْهُودُ.

تَقُولُ عَائِشَةُ: «**لَا أَغْبِطُ أَحَدًا يُخَفَّفُ عَنْهُ فِي النَّزْعِ بَعْدَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُعَانِي مِنَ السَّكَرَاتِ مَا يُعَانِي**»(١)؛ يَعْنِي: بَعْدَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُشَدَّدُ عَلَيْهِ فِي أَمْرِ الْقَبْضِ -قَبْضِ رُوحِهِ الشَّرِيفَةِ ﷺ-، يُشَدَّدُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ تَشْدِيدًا عَظِيمًا؛ فَتَقُولُ عَائِشَةُ: «**لَا أَغْبِطُ أَحَدًا يُخَفَّفُ عَنْهُ فِي سَكَرَاتِ الْمَوْتِ**»، بَلْ إِنَّ الَّذِي يُشَدَّدُ عَلَيْهِ فِي سَكَرَاتِ الْمَوْتِ صَاحِبُ حَالٍ شَرِيفٍ؛ فَالَّذِي يُشَدَّدُ عَلَيْهِ فِي أَوَاخِرِ عُمُرِهِ بِأَمْرِ الْمَرَضِ هُوَ مِنْ أَصْحَابِ الْإِكْرَامِ عِنْدَ اللهِ جَلَّوَعَلَا لَوْ كَانَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، وَالَّذِي يُشَدَّدُ عَلَيْهِ فِي حَالِ الِاحْتِضَارِ عِنْدَ النَّزْعِ هُوَ مِنْ أَصْحَابِ الْمَقَامِ الْكَرِيمِ عِنْدَ اللهِ جَلَّوَعَلَا.

يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَمَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ حَتَّىٰ يَلْقَىٰ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ وَلَيْسَتْ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**»(٢)؛ فِي نَفْسِهِ، فِي أَهْلِهِ، فِي مَالِهِ، فِي وَلَدِهِ حَتَّىٰ يُطَهِّرَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِالْمَصَائِبِ مِنَ الْمَعَائِبِ؛ فَيَلْقَىٰ اللهَ جَلَّوَعَلَا نَظِيفًا شَرِيفًا مُطَهَّرًا.

اللَّهُمَّ أَحْسِنْ خَاتِمَتَنَا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

❀❀❀

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ: (٣/ ٣٠٠، رقم ٩٧٩).
وَالْحَدِيث صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «**صَحِيحِ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ**»: (١/ ٥٠٢، رقم ٩٧٩).
(٢) تَقَدَّمَ تَخْرِيجُهُ.

مِيتَةٌ يُغْبَطُ عَلَيْهَا صَاحِبُهَا!!

عِبَادَ اللهِ! إِنَّ الْإِنْسَانَ عِنْدَمَا يَلْقَىٰ الْمَوْتَ؛ يَلْقَاهُ بِحَصِيلَةِ مَا فِي قَلْبِهِ، وَإِنَّهُ قَدْ وَقَعَ لِي أَمْرٌ رَأَيْتُهُ رَأْيَ الْعَيْنِ، وَمَا غَبَطْتُ[1] أَحَدًا عَلَىٰ مِيتَةٍ مِثْلَمَا غَبَطْتُ صَاحِبَ الْمِيتَةِ الَّتِي سَأَصِفُ -إِنْ شَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ- عَلَيْهَا، لَتَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ مَكَانَهُ.

فَاللَّهُمَّ أَحْسِنْ خَاتِمَتِي وَخَاتِمَةَ الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

فِي الشَّهْرِ الثَّالِثِ مِنْ سَنَةِ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَتِسْعِ مِائَةٍ وَأَلْفٍ (٣ - ١٩٨٧م)، وَفِي تِلْكَ الْغُرْفَةِ الْكَئِيبَةِ -غُرْفَةِ الْغَسِيلِ الْبِرِيتُونِيِّ- لِأَصْحَابِ الْفَشَلِ الْكُلَوِيِّ الْمُلْحَقَةِ بِقِسْمِ الْبَاطِنَةِ الْعَامَّةِ بِمُسْتَشْفَىٰ الْحُسَيْنِ الْجَامِعِيِّ، فِي لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي الشَّهْرِ الثَّالِثِ مِنْ ذَلِكَ الْعَامِ، وَفِي السَّحَرِ الْأَعْلَىٰ كَانَ سَعِيد أَحْمَد عَبْدِ الدَّائِمِ الْبَالِغُ مِنَ الْعُمُرِ خَمْسَةً وَأَرْبَعِينَ عَامًا، وَالَّذِي أَتَىٰ مِنْ تِلْكَ الضَّوَاحِي الَّتِي تُحِيطُ بِمَشْفَىٰ الْحُسَيْنِ الْجَامِعِيِّ، وَهُمْ مِنَ الْحَرَافِيشِ فِي مُجْتَمَعِ السَّادَةِ، وَفِي مُجْتَمَعِ الصَّفْوَةِ!!

أَتَىٰ هَذَا الرَّجُلُ بِجِلْبَابِهِ الْمُقَلَّمِ، أَتَىٰ مَرِيضًا قَدْ دَخَلَ فِي غَيْبُوبَةٍ تَامَّةٍ وَهُوَ مَرِيضٌ بِالْفَشَلِ الْكُلَوِيِّ، يُعَالَجُ مِنْهُ فِي ذَلِكَ الْمَشْفَىٰ، فَحُمِلَ عَلَىٰ عَجَلٍ إِلَىٰ

---

(١) «**الغِبْطَةُ**»: أَن تَتَمَنَّىٰ مِثْلَ حَالِ المَغْبوطِ مِنْ غَيْرِ أَن تُريد زَوَالَهَا وَلَا أَن تَتَحَوَّلَ عَنْهُ وَلَيْسَ بِحَسَدٍ.
انظُرْ: «**لِسَانَ الْعَرَبِ**»: (٧/ ٣٥٩)، مَادَّةُ: (غبط).

حُجْرَةِ الْغَسِيلِ الْبِرِيتُونِيِّ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ بِكُلِّ مَا فِيهَا مِنْ كَآبَةٍ، وَكُلِّ مَا فِيهَا مِنْ حُزْنٍ ظَاهِرٍ وَكَامِنٍ.. بَادٍ وَخَافٍ!!

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَعْفُوَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ، إِنَّهُ صَاحِبُ الْمَنِّ وَالْكَرَمِ.

حُمِلَ الرَّجُلُ فِي غَيْبُوبَةٍ تَامَّةٍ وَهُوَ مُلْقًىٰ عَلَىٰ ظَهْرِهِ، ثُمَّ يُدْخَلُ الْمَحْلُولُ فِي تَجْوِيفِ الْبِرِيتُون عِنْدَهُ، وَيُلَبَّثُ هُنَالِكَ ثُلُثَ السَّاعَةِ، ثُمَّ يُسْتَخْرَجُ وَيُدْخَلُ غَيْرُهُ، يَظَلُّ مُنْطَرِحًا -هَكَذَا- عَلَىٰ ظَهْرِهِ رُبَّما سِتًّا وَثَلَاثِينَ سَاعَةً، فَأَمَّا هَذَا الرَّجُلُ؛ فَكَانَ مُلْقًىٰ عَلَىٰ سَرِيرِهِ فِي آخِرِ الْحُجْرَةِ، وَقَدْ أَيِسَ مِنْهُ مَنْ كَانَ هُنَالِكَ -وَمِنْهُمُ الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا-، نُمَرِّضُهُ وَنَقُومُ عَلَىٰ شَأْنِهِ تَطْبِيبًا، وَنَلْحَظُ الدَّاخِلَ وَالْخَارِجَ تَقْيِيدًا وَضَبْطًا.

ثُمَّ إِنَّا لَمَّا أَيِسْنَا مِنْهُ تَمَامًا، كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ بُؤْرَةِ الشُّعُورِ إِلَىٰ هَامِشِهِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا كَثِيرِينَ هُنَالِكَ، لَمْ يَكُنْ وَحْدَهُ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ-، وَأَمَّا هُوَ فَفِي هَدْأَةِ السَّحَرِ الْأَعْلَىٰ بِقُرْبِ الْفَجْرِ -فَجْرِ اللهِ جَلَّوَعَلَا- الَّذِي يَنْبَثِقُ مِنْ وَرَاءِ جَبَلِ الْمُقَطَّمِ بِأَشِعَّةِ الصُّبْحِ الْمُنِيرِ، تَخْرُجُ مُدَمَّاةً بِدِمَاءِ الشَّمْسِ الْمُشْرِقَةِ صَبَاحًا، فِي تِلْكَ الْعَتْمَةِ الْخَفِيفَةِ فِي قُرْبِ الصُّبْحِ -صُبْحِ اللهِ جَلَّوَعَلَا- سَمِعْنَا فِي هَدْأَةِ اللَّيْلِ.. فِي سُكُونِهِ.. فِي هَدْأَةِ السَّحَرِ الْأَعْلَىٰ وَفِي رَوْعَتِهِ وَجَلَالِهِ نَأْمَةً تَأْتِي مِنْ هُنَاكَ مِنْ سَرِيرِهِ، نَأْمَةٌ بِغَمْغَمَةٍ جَعَلَتْ كُلَّنَا يَقُومُ فِي خُطْوَةٍ وَاحِدَةٍ، تَحَلَّقْنَا حَوْلَهُ، نَنْظُرُ مِنْ أَيْنَ يَأْتِي الصَّوْتُ، لَعَلَّهُ عِفْرِيتٌ قَدْ تَلَبَّسَ بِسَرِيرِ الرَّجُلِ مِنْ أُولَئِكَ الْمَوْتَىٰ الَّذِينَ تَعَاقَبُوا عَلَىٰ فِرَاشِهِ سَاعَةً مِنْ بَعْدِ سَاعَةٍ، يَخْرُجُونَ يَتَنَفَّسُونَ، وَيَخْرجُونَ جُثَثًا هَامِدَةً لَا تَبِينُ وَلَا تَنْطِقُ!!

كُنَّا حَوْلَهُ مُتَحَلِّقِينَ، وَهُوَ يُغَمْغِمُ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّىٰ اسْتَبَانَتْ غَمْغَمَتُهُ كَلَامًا مُفِيدًا قُدُسِيًّا رَائِعًا فِي ظِلَالٍ وَنَدًىٰ يَأْتِي مَعَ السَّحَرِ الْأَعْلَىٰ مِنْ وَرَاءِ الْغَمَامِ.. مِنْ خَلْفِ الصَّبَاحِ مَعَ إِشْرَاقَةِ الْفَجْرِ الْأَوْلَىٰ، يَأْتِي بِهِ وَحْيُ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وَإِذَا بِالرَّجُلِ فِي غَيْبُوبَتِهِ لَا يَزَالُ يَقُولُ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

ثُمَّ أَخَذَ صَوْتُهُ يَخْفُتُ شَيْئًا فَشَيْئًا، فَعَادَ إِلَىٰ غَمْغَمَتِهِ رُوَيْدًا رُوَيْدًا، ثُمَّ سَكَتَ سَكَتَ سَكَتَ، فَلَمْ يَنْطِقْ بَعْدُ، وَمَضَىٰ مَا لِلسَّمَاءِ لِلسَّمَاءِ وَمَا لِلْأَرْضِ لِلْأَرْضِ، وَانْفَجَرَتِ الْعُيُونُ بِدُمُوعِهَا!!

وَفِي الصَّبَاحِ جَاءَ أَهْلُهُ، وَهُوَ رَجُلٌ عَزَبٌ لَمْ يَتَزَوَّجْ، وَلَيْسَ لَهُ مَنْ يَمُونُهُ، وَلَيْسَ لَهُ مَنْ يَرْزُقُهُ -حَاشَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ- إِلَّا اللهُ، فَلَمَّا سَأَلْتُ عَنْ شَأْنِهِ؛ أُخْبِرْتُ: هُوَ رَجُلٌ مِنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ، يَقُومُ عَلَىٰ تِلَاوَتِهِ وَإِقْرَائِهِ، يَتَعَلَّمُهُ وَيُعَلِّمُهُ، رَجُلٌ لَيْسَ لَهُ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا كَلَامُ اللهِ، وَمَا أَجَلَّهُ مِنْ عِلْمٍ!!

رَجُلٌ لَيْسَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ، لَيْسَ لَهُ مِنْ قَرَابَةٍ قَرِيبَةٍ تَكْلَؤُهُ وَلَا تَرْعَاهُ، وَإِنَّمَا هُمْ مُحِبُّوهُ وَذَوُوهُ وَأَوِدَّاؤُهُ وَأَحِبَّاؤُهُ، أَحَبُّوهُ فِي اللهِ جَلَّوَعَلَا، فَأَتَوْا إِلَىٰ هَذَا الْعَائِلِ الْعَاجِزِ الْفَقِيرِ إِلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأَخَذُوا جُثْمَانَهُ الَّذِي أَظُنُّهُ عَادَ إِلَىٰ الْجَنَّةِ -إِنْ شَاءَ اللهُ جَلَّوَعَلَا-، وَمَضَوْا بِهِ.

مَا حَسَدْتُ أَحَدًا عَلَىٰ مِيتَةٍ مِثْلَمَا حَسَدْتُ الرَّجُلَ عَلَىٰ مِيتَتِهِ.

وَنَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ لَنَا وَلِلْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ.

اتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللهِ-، وَاصْبِرُوا؛ فَهَذَا رَجُلٌ فِي الْغَيْبُوبَةِ مَا يَزَالُ، لَا يَتَحَرَّكُ لِسَانُهُ إِلَّا بِمَا فِي قَلْبِهِ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾!!

يَقُولُهَا صَاحِيًا وَغَافِيًا، يَقُولُهَا مُنْتَبِهًا وَنَائِمًا، يَقُولُهَا للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَيًّا وَمَيِّتًا وَهُوَ فِي سِيَاقَةِ الْمَوْتِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي قَلْبِهِ مَا يُقَالُ غَيْرَ ذَلِكَ، فَاعْمُرُوا قُلُوبَكُمْ بِذِكْرِ اللهِ، وَقُولُوا (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) تُفْلِحُوا.

اللَّهُمَّ أَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، وَتَوَفَّنَا مُؤْمِنِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ.

اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَبَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ.

اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ، اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَبَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَمَا قَضَيْتَهُ لَنَا بِهِ مِنْ قَضَاءٍ فَاجْعَلْ عَاقِبَتَهُ رَشَدًا، فَاجْعَلْ عَاقِبَتَهُ رَشَدًا.

اللَّهُمَّ أَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، وَتَوَفَّنَا مُؤْمِنِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ ثَبِّتْ أَقْدَامَنَا، وَاهْدِ قُلُوبَنَا، وَبَيِّضْ وُجُوهَنَا.

اللَّهُمَّ اشْرَحْ صُدُورَنَا، وَأَصْلِحْ بَالَنَا، اللَّهُمَّ ثَقِّلْ مَوَازِينَنَا، وَسَدِّدْ أَلْسِنَتَنَا.

اللَّهُمَّ أَهْلِكْ أَعْدَاءَنَا، اللَّهُمَّ أَهْلِكْ أَعْدَاءَنَا أَعْدَاءَ الدِّينِ، اللَّهُمَّ أَهْلِكْ أَعْدَاءَنَا أَعْدَاءَ الدِّينِ.

اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِالْكَفَرَةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي نُحُورِهِمْ، اجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي نُحُورِهِمْ، اجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي نُحُورِهِمْ، اللَّهُمَّ أَدِرِ الدَّائِرَةَ عَلَيْهِمْ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ، وَآمِنْ رَوْعَاتِ الْمُسْلِمِينَ.

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَارْحَمِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، الْأَحْيَاءَ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتَ.

اللَّهُمَّ أَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، وَتَوَفَّنَا مُؤْمِنِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ.

اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْنَا لِنَتُوبَ، تُبْ عَلَيْنَا لِنَتُوبَ، تُبْ عَلَيْنَا لِنَتُوبَ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا لِدِينِكَ عَامِلِينَ، وَلِشَرْعِكَ خَادِمِينَ، وَعَنْ هَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ مُجَاهِدِينَ، وَعَنْهُ مُنَافِحِينَ، وَأَكْرِمْنَا بِالشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِكَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ اكْتُبْ لَنَا الشَّهَادَةَ فِي سَبِيلِكَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ.

اللَّهُمَّ خُذْ عَنَّا أَعْيُنَ النَّاظِرِينَ وَقُلُوبَ الْحَاسِدِينَ وَالْبَاغِينَ، وَاحْفَظْنَا كَمَا حَفِظْتَ الرُّوحَ فِي الْجَسَدِ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ أَلِّفْ بَيْنَ قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ، وَحِّدْ صُفُوفَ الْمُسْلِمِينَ، وَحِّدْ صُفُوفَ الْمُسْلِمِينَ، أَعْلِ رَايَةَ الْمُسْلِمِينَ، أَعْلِ رَايَةَ الْمُسْلِمِينَ، اجْمَعْ شَمْلَ الْمُسْلِمِينَ، أَلِّفْ بَيْنَ قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ.

اللَّهُمَّ أَهْلِكْ أَعْدَاءَ الْمُسْلِمِينَ، أَهْلِكْ أَعْدَاءَ الْمُسْلِمِينَ.

اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِالْيَهُودِ الْمَلَاعِينِ، عَلَيْكَ بِالْكَفَرَةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، عَلَيْكَ بِالْكَفَرَةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، اللَّهُمَّ دَمِّرْهُمْ تَدْمِيرًا، وَزَلْزِلْهُمْ زِلْزَالًا شَدِيدًا، اللَّهُمَّ اسْحَقْهُمْ سَحْقًا، وَامْحَقْهُمْ مَحْقًا، وَنَجِّ مِنْ كَيْدِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ.

اللَّهُمَّ نَجِّ الْمُسْلِمِينَ فِي فِلَسْطِينَ، نَجِّ الْمُسْلِمِينَ فِي فِلَسْطِينَ، نَجِّ الْمُسْلِمِينَ فِي فِلَسْطِينَ.

اللَّهُمَّ نَجِّ الْمُسْلِمِينَ فِي السُّودَانِ، اللَّهُمَّ نَجِّ الْمُسْلِمِينَ فِي الشَّمَالِ، نَجِّ الْمُسْلِمِينَ فِي الشَّمَالِ.

اللَّهُمَّ انْصُرِ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، انْصُرِ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، اللَّهُمَّ انْصُرِ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، اللَّهُمَّ ثَبِّتْ أَقْدَامَهُمْ، ثَبِّتْ أَقْدَامَهُمْ، ثَبِّتْ أَقْدَامَهُمْ، أَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْهِمْ، أَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْهِمْ، أَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْهِمْ.

ارْحَمْ أُمَّةَ نَبِيِّكَ، أَدْرِكْ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ بِتَوْبَةٍ نَصُوحٍ، أَدْرِكْ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، وَاجْعَلْ آخِرَ كَلَامِنَا مِنَ الدُّنْيَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

سُبْك الْأَحَدِ
فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ:
٣٠ مِنْ جُمَادَىٰ الْأُولَىٰ ١٤٢٣هـ
٩ مِنْ أُغُسْطُسَ ٢٠٠٢م

وَكَتَبَ:
أَبُو عَبْدِ اللهِ
مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ رَسْلَانَ
- عَفَا اللهُ عَنْهُ وَعَنْ وَالِدَيْهِ-

الْفِهْرِسُ

الْخُطْبَةُ الْأُولَىٰ..... ٣
حَقِيقَةُ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ..... ٤
قَضِيَّتَانِ مَحْسُومَتَانِ: الْأَجَلُ وَالرِّزْقُ..... ٧
السَّرَائِرُ وَالْخَوَاتِيمُ عِلْمُهَا إِلَىٰ اللهِ وَحْدَهُ..... ٩
نَمُوذَجٌ فَذٌّ فِي الصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلَاءِ..... ١١
الْمَوْتُ سَيْفٌ مُعَلَّقٌ عَلَىٰ رُؤُوسِ الْأَحْيَاءِ..... ١٨
الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ..... ٢٢
الِابْتِلَاءُ عَلَىٰ قَدْرِ الدِّينِ وَالْإِيمَانِ..... ٢٢
حَالُ الْمُسْلِمِ الصَّحِيحُ مَعَ الْمَرَضِ..... ٢٤
مِيتَةٌ يُغْبَطُ عَلَيْهَا صَاحِبُهَا!!..... ٣٠